على لسان وليد ذاته: «أمّا القوى الخفيّة التي تتحكّم بالإنسان، فهي التي تهمني» فأية صورة شخصية تتجسّد أمامنا؟

لا أعتقد إن أحداً يستطيع أن ينكر أن الرواية قد رسمت لنا صورة كاملة لديكتاتور العالم الثالث، من خلال شخصية وليد مسعود: الشخصية الأبوية الطاغية، رفض الحوار وسماع رأي الآخر، وضع آراء سطحية موضع التقديس واعتبار كل من يعترض عليها حاقداً، سيء النيّة، وعميلاً لدولة أجنبية، والإحساس الغيبي بأن القدر ــ أو النجوم ــ في حالة وليد مسعود ــ هو الذي اختاره، وحدد له الدور؛ وان القدر اختاره لأنه النسر وسط طيور قعيدة.

وهذا النمط بالذات هو الذي يلوّح ــ لا يمنح بالفعل ــ برغيف الخبز، ويسحق كل فكر مخالف سحقاً.

فهل هذا النمط من الشخصية هو الذي يخلق الإنسان الحر، والذي يخلص المواطن من السلفيّة، ويقوده في طريق التقدّم والإسهام في الحضارة العالمية؟

بالطبع لا.

أمّا الاحتمال الآخر، وهو أن المؤلّف أراد أن يخلق شخصية تبشر بآراء تتناقض تماماً مع سلوكها وشخصيتها فهو غير وارد قطعاً.

أي إن التناقض هنا بين القول والفعل هو تناقض المؤلّف ذاته، التناقض الذي لم يكن يعيه.

أما دلالة هذا التناقض، فسوف نؤجّل الحديث عنها إلى بعد حين. وكذلك سوف نؤجّل الحديث عن التناقض بين فكر وليد مسعود والظروف الموضوعية في العالم الثالث.

وليد مسعود ثائر فلسطيني، يؤمن بالكفاح المسلّح كسبيل لتحرير بلده من الإستعمار الإستيطاني. أو هذا هو ما تجهد الرواية لأن تقنعنا به. وهو لم يكتف بالإعلان عن ذلك، بل أنشأ، أو شارك في إنشاء ــ هذه النقطة ليست واضحة ــ منظمة فدائية لتحقيق هذه الأهداف.

وقد ذكرنا، منذ قليل، إن ذكريات وليد وتداعياته، وهمومه اليومية، لا تشير من قريب، أو بعيد، إلى المهمة التي كرّس لها حياته، وربما موته. إن كل ذلك ينحصر في ذكريات طفولته، أو في علاقاته داخل المجتمع العراقي.

وإذا انتقلنا إلى فكر وليد مسعود الإجتماعي والسياسي، نجد أنه يغفل تماماً القضية الفلسطينية، والثورة الفلسطينية. فالمأزق الذي يطرحه هو مأزق المجتمع العراقي الذي يعتقد وليد أنه أمام خيارين: التنمية القسرية، أو الليبرالية. ووليد لا يتردد في اختيار الليبرالية كحل.

ولكن كيف حدث لقائد الثورة الفلسطينية، أو لأحد قادتها البارزين ألا يولي ثورته، التي تتم في ظروف معقّدة، أي التفات؟.